

البيت المرواني

سليمان بن عبد الملك

الفصل السابع

٩٦-٩٩ هـ / ٧١٥-٧١٧ م

obeykandl.com

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي، (٥٤-٩٩ هـ/ ٦٧٤-٧١٧ م) الخليفة الأموي السابع، وهو يعد من خلفاء بني أمية الأقوياء، ولد بدمشق وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الخليفة الوليد بن عبد الملك عام ٩٦ هـ. ومدة خلافته لا تتجاوز السنتين وسبعة أشهر. (حكم: ٩٦-٩٩ هـ/ ٧١٥-٧١٧ م).

كان الناس في دمشق يسمونه مفتاح الخير ويحبونه ويتباركون به، أشاع العدل وأنصف كل من وقف ببابه، والخليفة سليمان بن عبد الملك يتصف بالجمال والوقار، عظيم الخلقة، طويل القامة، أبيض الوجه مقرون الحاجبين فصيحاً بليغاً، عمل في فترة توليه الخلافة كل ما فيه مصلحة الناس وحافظ على اتساع وقوة الدولة الأموية واهتم بكل ما يعني الناس أطلق الأسرى، وأخلى السجون، وأحسن معاملة الجميع فكسب محبتهم وكان من أعدل خلفاء بني أمية والمسلمين، واستخلف عمر بن عبد العزيز من بعده.

في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك استمرت الفتوحات الأموية في آسيا وفتحت جرجان وطبرستان، وجهاز جيشاً كبيراً من سواحل الشام وأعد الأسطول الأموي وسيره في السفن لحصار القسطنطينية، وسار مع الحملة وعزم أن لا يعود حتى تفتح القسطنطينية أو يموت فمات مرابطاً في دابق شمالي مدينة حلب^(١). وهو مقيم بمرج دابق يتابع الأخبار عن الجيش في (١٠ من صفر ٩٩ هـ). قال ابن كثير: "تعهد ألا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت؛ فمات هناك فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله"^(٢).

توج سليمان بن عبد الملك أعماله بما يدل على حرصه على مصلحة المسلمين؛ فاختر عمر بن عبد العزيز قبل موته ليكون ولياً للعهد ويخلفه من بعده، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة أصدر أوامره بسحب القوات الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية والعودة إلى الشام.

قال نهار بن توسة في سليمان بن عبد الملك:

تفض بها للمشركين جموع

صقاب تحت من ريشها الوقوع

فأينا وأمر المسلمين جميع

له راية بالثغر سوداء لم تنزل

مباركة تهدي الجند كأثنا

على طاعة المهدي لم يبق غيرها

١ - الدولة الأموية، موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة على الشبكة المنكوبية.

٢ - ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، النسخة الرقمية.

الحصار الثالث للقسطنطينية في عهد سليمان بن عبد الملك^(١)

على الرغم من عدم نجاح المحاولة الأولى والثانية في عهد معاوية بن أبي سفيان لفتح القسطنطينية عام ٦٠-٥٤ هـ (٦٧٤-٦٧٩ م)، إلا أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان عازماً على إرسال الجيوش الإسلامية لفتح القسطنطينية، حيث أشار عليه **موسى بن نصير** بأن يفتح ما دونها من المدن، والرساتيق، والحصون، حتى يبلغ المدينة فلا يأتيها إلا وقد هدمت حصونها، ووهنت قوتها، فإذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد، ثم استشار أخاه **مسلمة** فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عنوة، فمتى ما فتحت فأن باقي ما دونها من البلاد والحصون بيدك، فقال سليمان: هذا هو الرأي ثم أخذ في تجهيز الجيوش من **الشام والجزيرة الفراتية والموصل** نحواً من مائة وعشرين ألف مقاتل، وبعث من أهل **مصر وإفريقية** ألف مركب في البحر عليهم **عمر بن هبيرة**، و**على الناس كلهم أخوه مسلمة**، ومعه ابنه داود بن سليمان بن عبد الملك في جماعة من أهل بيته، وذلك كله عن مشورة موسى بن نصير.

ثم سار سليمان حتى نزل **مرج دابق** قرب حلب، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة، فاجتمع له جند عظيم لم يرمثه، ثم أمر مسلمة أن يرحل بالجيوش وأخذ معه **إليون الرومي المرعشي**، ثم ساروا حتى نزلوا على **القسطنطينية**، فحاصروها إلى أن برح بهم وعرض أهلها الجزية على مسلمة فأبى إلا أن يفتحها عنوة، قالوا: فابعث إلينا إليون نشاوره، فأرسله إليهم، فقالوا له: رد هذه العساكر عنا ونحن نعطيك ونملكك علينا، فرجع إلى مسلمة، فقال: قد أجابوا إلى فتحها غير أنهم لا يفتحونها حتى تتحى عنهم، فقال مسلمة: إني أخشى غدرك، فحلف له أن يدفع إليه مفاتيحها وما فيها، فلما تحى عنهم أخذوا في ترميم ما تهدم من أسوارها واستعدوا للحصار.

مساعدة البلبغار للقسطنطينية^(١)

لما ضيق **مسلمة بن عبد الملك** بمحاصرته على أهل القسطنطينية، وتبع المسالك واستحوذ على ما هنالك من الممالك، كتب إليون ملك الروم إلى ملك البرجان يستنصره على مسلمة، ويقول له: ليس لهم همة إلا في الدعوة إلى دينهم، الأقرب منهم فالأقرب، وأنهم متى فرغوا مني خلصوا إليك، فمهما كنت صانعاً حينئذ فاصنعه الآن، فعند ذلك شرع في المكر والخديعة...، فكتب إلى مسلمة يقول له: إن إليون كتب إلي يستنصرني عليك، وأنا معك فمرني لما شئت. فكتب إليه مسلمة: أني لا أريد منك رجالاً ولا عدداً، ولكن أرسل إلينا بالميرة فقد قل ما عندنا من الأزواد. فكتب إليه: أني قد أرسلت إليك بسوق عظيمة إلى مكان كذا وكذا، فأرسل من يتسلمها ويشتري منها. فأذن مسلمة لمن شاء من الجيش أن يذهب إلى هناك فيشتري له ما يحتاج إليه، فذهب خلق كثير فوجدوا هنالك سوقاً هائلة، فيها من أنواع البضائع والأمتعة والأطعمة، فأقبلوا يشترون، واشتغلوا بذلك، ولا يشعرون بما أرصد



محاولة المسلمين لفتح القسطنطينية في عهد سليمان بن عبد الملك

لهم الخبيث من الكمائن بين تلك الجبال التي هنالك، **فخرجوا** عليهم بغتة واحدة فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين وأسروا آخرين، وما رجع إلى مسلمة إلا القليل منهم، وتقول المراجع اليونانية بأن قتل المسلمين من تلك العملية ما بين ١٢،٠٠٠-١٥،٠٠٠ رجل.

فكتب **مسلمة** بذلك إلى أخيه **سليمان** يخبره بما وقع من ذلك، فأرسل جيشاً كثيفاً صحبة **شراحيل بن عبيدة** هذا، وأمره أن يعبروا خليج القسطنطينية أولاً فيقاتلوا ملك البرجان، ثم يعودوا إلى مسلمة، فذهبوا إلى بلاد البرجان وقطعوا اليهم تلك الخلجان، فاقتتلوا معهم قتالاً شديداً، فهزمهم المسلمون بإذن الله، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً، وخلصوا أسرى المسلمين، ثم تحيزوا إلى مسلمة فكانوا عنده حتى استقدم الجميع عمر بن عبد العزيز خوفاً عليهم من غائلة الروم وبلادهم، ومن ضيق العيش، وقد كان لهم قبل ذلك مدة طويلة^(١).

١ - ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٠٨.

شتاء القسطنطينية البارد :



ماكاد يمضي ستة شهور على دخول **ليو** إلى القسطنطينية (٢٥ مارس ٧١٧)، أي في سبتمبر من نفس العام حتى تحرك المسلمون من برجاموس نحو الشمال، فبلغوا أيبيدوس الواقعة على بوزغاز الدردنيل، ولما عبروا الشاطئ الأوربي، وجدوا أنفسهم أمام أسوار القسطنطينية،

« انظر الصورة في هذه الصفحة والصفحة المقابلة ، لتتعرف على طبيعة أسوار القسطنطينية المنيعة » وفي الوقت نفسه كان الأسطول البحري يجتاز الدردنيل وبحر مرمرة محاصراً المدينة من جهة البحر. واستمات إليون (ليو الثالث) بالدفاع عن المدينة، إذ أغلق مداخل البوسفور بسلسلة ضخمة من الحديد وشحن الجنود على الأسوار لمنع المسلمين من اقتحامها، وقد عمل **مسلمة** بيوتاً من خشب أمضى بها الشتاء، غير أن برد الشتاء بلغ من القسوة والشدة ما عانى منه المسلمون كثيراً من الجوع والأمراض، حتى أنهم أكلوا الجمال والخيول والبغال. وأيضاً محاولة إليون مفاوضة البلغار، فهاجموا المسلمين الذين حاصروا المدينة من الجانب الأوروبي، وردوهم عنها، وما سببته النيران الإغريقية من خسائر فادحة بالإسطول. وزاد الأمر سوءاً تواطؤ البحارة النصارى الذين يعملون بالإسطول الإسلامي مع البيزنطيين، وقد هرب معظمهم.

وقد وصلت إمدادات من مصر حوالي ٤٠٠ سفينة، ومن إفريقية ٣٦٠ سفينة، خلال ربيع من عام ٧١٨/٩٩هـ، ولكن ذلك لم يغير من مجريات الحرب، وظلت أسوار المدينة مستعصية على المسلمين. فترتبت تلك العوامل على تراجع الإسطول الإسلامي نحو الجنوب، وفي أثناء تراجعه صادفته عواصف شديدة، فتحطمت سفن عديدة ونفدت أقوات الجند، مما أدى إلى اضطرار المسلمين إلى رفع الحصار والعودة إلى الشام في أغسطس عام ٧١٨.^(١)



من أسوار القسطنطينية النخعة



الفتوحات على الجبهة الشرقية في عهد سليمان بن عبد الملك^(١)

غزو جرجان وطبرستان:

في هذه السنة غزا **يزيد بن المهلب** جرجان وطبرستان، لما قدم يزيد بن المهلب **خراسان** أقام ثلاثة أشهر أو أربعة ثم أقبل إلى **دهستان** و**جرجان** وبعث ابنه مخلدًا على **خراسان** وجاء حتى نزل **بدهستان** وكان أهلها طائفة من الترك فأقام عليها وحاصر أهلها معه أهل الكوفة، وأهل البصرة، وأهل الشام، ووجوه أهل خراسان، والري، وهو في مائة ألف مقاتل سوى الموالى والمماليك والمتطوعين فكانوا يخرجون فيقاتلون الناس فلا يلبثهم الناس أن يهزموهم، فيدخلون حصنهم ثم يخرجون أحياناً فيقاتلون فيشتد قتالهم ... ثم إنه ألح عليها وأنزل الجنود من كل جانب حولها، وقطع عنهم المواد فلما جهدوا وعجزوا عن قتال المسلمين، واشتد عليهم الحصار والبلاء بعث صول **دهقان دهستان** إلى **يزيد** **إني أصالحك** على أن تؤمنني على نفسي، وأهل بيتي، ومالي، وأدفع إليك المدينة وما فيها وأهلها؛ فصالحه وقبل منه ووفى له ودخل المدينة فأخذ ما كان فيها من الأموال والكنوز ومن السبي شيئاً لا يحصى وقتل أربعة عشر ألف تركي صبراً وكتب بذلك إلى **سليمان بن عبد الملك**.

ثم خرج **يزيد بن المهلب** حتى أتى **جرجان** وقد كانوا يصلحون أهل الكوفة على مائة ألف ومائتي ألف أحياناً وثلاثمائة ألف، وصالحوهم عليها، فلما أتاهم **يزيد** **استقبلوه بالصلح**، وهابوه، وزادوه، واستخلف عليهم رجلاً من الأزد، يقال له: أسد بن عبد الله، ودخل **يزيد** إلى **الإصهبند** في **طبرستان** فكان معه الفعلة يقطعون الشجر، ويصلحون الطرق، حتى انتهوا إليه فنزل به فحصره وغلب على أرضه، وأخذ **الإصهبند** يعرض على **يزيد** الصلح ويريده ما كان يؤخذ منه، فيأبى رجاء افتتاحها فبعث ذات يوم أخاه أبا عبيدة في أهل المصرين فأصعد في الجبل إليهم، وقد بعث **الإصهبند** إلى **الديلم** فاستجاش بهم فاقبلوا فحازهم المسلمون ساعة وكشفوهم وخرج رأس الديلم يسأل المبارزة، فخرج إليه ابن أبي سبرة فقتله، فكانت هزيمتهم حتى انتهى المسلمون إلى فم الشعب، فذهبوا ليصعدوا فيه، وأشرف عليهم العدو يرشقونهم بالنشاب، ويرمونهم بالحجارة فانهزم الناس من فم الشعب من غير كبير قتال، ولا قوة من عدوهم على اتباعهم وطلبهم وأقبلوا يركب بعضهم بعضاً حتى أخذوا يتساقطون في اللهب ويتدهى الرجل من رأس الجبل، حتى نزلوا إلى عسكر **يزيد** لا يعبئون بالشر شيئاً.

١ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، « تاريخ الطبري »، ص ١٢٧٤، طبعة بيت الأفكار الدولية، أعتنى به أبو صهيبي الكرمي .

فتح المشرق في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ

٢ أقام يزيد بن المهلب بمكانه في طبرستان على حاله، وأقبل الإصبيدي كاتب أهل جرجان، وسأله أن يثبوا بأصحاب يزيد، وأن يقطعوا عليه مادته والطرق فيما بينه وبين العرب، ويهدم أن يكافئهم على ذلك فوثبوا بمن كان يزيد خلف من المسلمين، فقتلوا منهم من قدروا عليه واجتمع بقيتهم فتحصنوا في جانب فلم يزالوا فيه حتى خرج إليهم يزيد، وأقام يزيد على الإصبيدي في أرضه حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف نقد ومائتي ألف وأربعمائة دينار موهرة، زعفراناً وأربعمائة رجل على رأس كل رجل برنس، وعلى الأبرنس طيلسان ولجام من فضة وسرقة من حرير، وقد كانوا صالحوا قبل ذلك على مائتي ألف درهم ثم خرج منها يزيد وأصحابه كأنهم قل، ولولا ما صنع أهل جرجان لم يخرج من طبرستان حتى يفتحها.

ذكر الطبري غير رواية أبي مخنف: في أمر يزيد وأهل جرجان، ما حدثني أحمد بن زهير عن علي بن محمد عن كليب بن خلف وغيره، أن سعيد بن العاص صالح أهل جرجان ثم امتنعوا وكفروا، فلم يأت جرجان بعد سعيد أحد ومنعوا ذلك الطريق فلم يكن يسلك طريق خراسان من ناحيته أحد إلا على وجل وخوف من أهل جرجان، كان الطريق إلى خراسان من فارس إلى كرمان فأول من سهر الطريق من قومين قتيبة بن مسلم حين ولي خراسان، ثم غزا مصقلة خراسان أيام معاوية في عشرة آلاف فأصيب وجنده بالرويان وهي متاخمة طبرستان، فهلكوا في واد من أوديةها أخذ العدو عليهم بمضايقة فقتلوا جميعاً فهو يسمى وادي مصقلة. قال: وكان يضرب به المثل حتى يرجع مصقلة من طبرستان، قال علي عن كليب بن خلف العمي عن ثعلبة بن مرداس العمي وأدريس بن حنظلة: إن سعيد بن العاص صالح أهل جرجان فكانوا يجيئون أحياناً مائة ألف ويقولون هذا صلحتنا، وأحياناً مائتي ألف، وأحياناً ثلاثمائة ألف، وكانوا ربما أعطوا ذلك، وربما منعوه ثم امتنعوا، وكفروا فلم يقطعوا خراجاً حتى أتاهم يزيد ابن المهلب فلم يعاذه أحد حين قدمها فلما صالح صول، وفتح البحيرة، ونهستان، صالح أهل جرجان على صلح سعيد بن العاص.



طَبَرِستان: يفتح أوله وثانيه، وكسر الراء، قد ذكرنا معنى الطبر قبله، وأمستان: الموضع أو الناحية، كأنه يقول: ناحية الطبر، وسذكر سبب صسمية هذا الموضع بذلك، والتسمية إلى هذا الموضع الطبري؛ قال الجحدي:

وأهست به القيامة في قم على خالغ وعات غنيء وهي معلما إلى طبرستان يخيلى ترحن تحت اللبوء

وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم؛ خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه، والثقال على هذه النواحي الجبال، فمن أعيان بكتلتها **دهستان**، و**جرجان**، و**استراباد**، و**أسل**، وهي قصبتها، و**مسارية**، وهي مثلها، وشالوس، وهي مقاربة لها، وربما حدثت جرجان من خراسان إلى غير ذلك من البلدان، وطبرستان في البلاد المروية بماء زندان، ولا أدري متى سميت بماء زندان، فإنه اسم لم نجده في الكتب القديمة وإنما يسمعون من أهوا أهل تلك البلاد، ولا شك أنهما واحد، وهذه البلاد مجاورة لجبلان، وديلمان، وهي بين الرزي وقومس والبحر، وبلاد الديلم والجبل، رأيت أطرافها وعابنت جبالها، وهي كثيرة المياه متهدلة الأشجار كثيرة الفواكه إلا أنها مخفية وخمة، قبلة الانهزام، كثيرة الاختلاف والنزاع، وأنا أذكر ما قال العلماء في هذا القطر وأذكر فتوحه واشتقاقه، ولا بد من احتمالك تفصيل فيه تطويل بالفائدة الباردة، فهذا من عقدنا مما استعدنا بمشاهدة والمطالعة ... الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٤٧.

فتح جرجان:

قال الطبري: وفي هذه السنة فتح **يزيد بن المهلب** جرجان الفتح الآخر بعد غدرهم بجنده ونقضهم العهد قال علي عن الرهط الذين ذكر أنهم حدثوه بخبر جرجان وطبرستان: ثم إن يزيد لما صالح أهل طبرستان قصد لجرجان فأعطى الله عهداً لئن ظفر بهم ألا يقلع عنهم، ولا يرفع عنهم السيف... فلما بلغ المرزبان أنه قد صالح الإصبيذ، وتوجه إلى جرجان جمع أصحابه وأتى وجاء فتحصن فيها وصاحبها لا يحتاج إلى عدة من طعام، ولا شراب، وأقبل يزيد حتى نزل عليها وهم متحصنون فيها وحولها غياض فليس يعرف لها إلا طريق واحد فأقام بذلك سبعة أشهر لا يقدر منهم على شيء ولا يعرف لهم مأتى إلا من وجه واحد فكانوا يخرجون في الأيام فيقاتلونهم ويرجعون إلى حصنهم فبينما هم على ذلك إذ خرج رجل من عجم خراسان كان مع يزيد يتصيد ومعه شاكزية له.

وقال هشام بن محمد عن أبي مخنف، فخرج رجل من عسكره من **طليء** يتصيد فأبصر وعلاً يرقى في الجبل فاتبعه وقال لمن معه: قفوا مكانكم، ووقل في الجبل يقتص الأثر فما شعر بشيء حتى هجم على عسكرهم فرجع يريد أصحابه فخاف ألا يهتدي فجعل يخرق قباءه ويعقد على الشجر علامات حتى وصل إلى أصحابه ثم رجع إلى العسكر، ويقال: إن الذي كان يتصيد الهياج بن عبد الرحمن الأزدي من أهل طوس وكان منهوماً بالصيد فلما رجع إلى العسكر أتى عامر بن أينم الواشجي صاحب شرطة يزيد فمنعوه من الدخول فصاح إن عندي نصيحة.

وقال بعضهم: استعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد، وقال له: إن غلبت على الحياة فلا تغلبن على الموت وإياك أن أراك عندي مهزوماً وضم إليه جهم بن زحر، وقال يزيد للرجل الذي ندب الناس معه: متى تصل إليهم؟ قال: غداً عند العصر فيما بين الصلاتين، قال: امضوا على بركة الله، فإني سأجهد على مناهضتهم غداً عند صلاة الظهر، فساروا فلما قارب انتصاف النهار من غد، أمر يزيد الناس أن يشعلوا النار في حطب كان جمعه في حصاره إياهم فصيره أكاماً فأضرموه ناراً فلم تزل الشمس حتى صار حول عسكره أمثال الجبال من النيران، ونظر العدو إلى النار فهالهم ما رأوا من كثرتها؟! فخرجوا إليهم، وأمر يزيد الناس حين زالت الشمس فصلوا فجمعوا بين الصلاتين، ثم زحفوا إليهم فاقتتلوا. وسار الآخرون بقية يومهم والنقد فهجموا على عسكر الترك قبيل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيد يقاتل من هذا الوجه، فما شعروا إلا بالتكبير من ورائهم فانقطعوا جميعاً إلى حصنهم وركبهم المسلمون فأعطوا بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم، وقتل مقاتلتهم، وصلبهم فرسخين عن يمين الطريق ويساره، وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى الأندلس وادي جرجان، وقال من طلبهم بشأراً فليقتل فكان الرجل من المسلمين يقتل الأربعة، والخمسة في الوادي، وأجرى الماء في الوادي على الدم،... وبنى مدينة جرجان، وقال بعضهم: قتل يزيد من أهل جرجان أربعين ألفاً ولم تكن قبل ذلك مدينة ورجع إلى خراسان واستعمل على جرجان جهم بن زحر الجعفي. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، «تاريخ الطبري»، ص ١٢٧٧، طبعة بيت الأفكار الدولية، أعتنى به أبو صهيب الكرمي.



٣ كتب يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك.

أما بعد: فإن الله قد فتح لأمر المؤمنين فتحاً عظيماً وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلبينا الحمد على نعمه، وإحسانه أظهر في خلافة أمير المؤمنين على **جرجان** و**طبرستان** وقد أعيا ذلك سابور ذا الأكتاف، وكسرى بن قباد، وكمرى بن هرمز، وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لأمر المؤمنين كرامة من الله له، وزيادة في نعمه عليه، وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين، بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفية والغنيمة ستة آلاف ألف، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله.

